أوضاع اليهود في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي

الأستاذ الدكتور جواد مطر الموسوي
رئيس جامعة واسط

توطئة

تتناول هذه الدراسة بالعرض والتحليل جوانب مهمة من أحوال اليهود في اسبانيا اسبانيا (قبل الفتح الإسلامي) و(إبان الحكم الإسلامي) و(بعد نهاية الحكم لإسلامي). والغاية من وراء ذلك تسليط الضوء على أوضاع اليهود في اسبانيا فيظل أنظمة الحكم الحكم التي مرت عليها. ظل اليهود تحت الحكم الروماني والقوطي نحو ستة قرون، وتحت قرون، وتحت الحكم الإسلامي المدة نفسها، واقل منها بقرن تحت الحكم الملكي ثم الجمهوري الجمهوري .وتمتاز اسبانيا (شبه جزيرة ايبرية Iberian Peninsula) بأنها ارض ارض مرتفعة، جافة، قليلة الأنهار، تقطعها الجبال الى جيوب معزولة، ومناخ مناطقها الشمالية شبيه بمناخ جنوب فرنسا(بلاد الغال)، أما مناخ القسم الجنوبي منها منها فشبيه بمناخ شمال افريقية [١] سكنتها قبائل الوندال (Vandals)، ثم سيطرت عليها قبائل القوط(Goths) التي نزحت من شمالي أوربا، وهذه القبائل(الوندال والقوط والقوط) تتشابه في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد[٢]، مما يدل على أنها ترجع في الأصل إلى أرومة واحدة.وفي عام (٩٣هـ/٧١٢م) أصبحت شبه جزيرة أيبيرية أيبيرية بيد المسلمين بعد السيطرة عليها من قبل موسى بن نصير وطارق بن زياد. وقد وقد استمر الوجود العربي حتى عام (٨٩٧هـ/١٤٩٥م)، إذ انهي على يد الملك اراغون وزوجته الملكة ازابيلا. وهذه العهود الثلاثة التي عاشها اليهود في اسبانيا

تظهر مدى تسامح المسلمين مع اليهود، وصلاح أمر اليهود بدرجة لم تتحقق في العهدين العهدين الآخرين، بل ان اليهود عاشوا الغبن في المرحلة الأولى، والظلم في المرحلة المرحلة الأخيرة.ان هذه الدراسة تفيد الباحثين والدارسين المعنيين بـ(الدراسات الأندلسية)، فتتبع اليهود وأثرهم في الحياة الأندلسية يعطي صورة واضحة في مجال مجال الدراسات التاريخية والأدبية والاجتماعية ولاسيما في مرحلة الحكم الإسلامي للمساحة الواسعة التي حصل عليها اليهود على مختلف الصعد، فظهر منهم السياسيون السياسيون والقضاة والشعراء والكتاب وغيرهم من طبقات النابهين هذا، ونحن لا ندعي ندعي الكمال وتمام الاستيفاء، بل نترك الباب مشرعة لمن يريد أن يزيد أو يعمل عملا عملا مماثلا، راجين من الله تحقيق الفائدة من البحث،والله ولي العلماء والعاملين بإحسان.في بإحسان.في تاريخ وصول اليهود الى اسبانيا واستقرارهم فيها اكثر من رأي؛ فيرى (عبد المالك التميمي)[٣] انهم هاجروا مع الكنعانيين (الفينيقيين) قبل الميلاد من بلاد الشام عن طريق سواحل شمال افريقية، ويبدو أن هذا الرأي بعيد عن الصحة، الصحة، من غير المتوترة عبر التاريخ بين الفينيقيين واليهود، علما أن اليهود لا يمكن يمكن أم يهاجروا بلا ضغط كبير من أماكنهم المقدسة، سواء كان هذا الضغط سياسياً او سياسياً او نتيجة عوامل طبيعية. ويرى كرايزل (Soloman Grayzel) أن أول اتصال اتصال بين اليهود وأوربا الغربية كان عبر روما سنة (١٦٠ ق.م)، وازدادت أعدادهم أعدادهم في القرن الأول قبل الميلاد إذ قدر عددهم بخمسين ألفا في مدينة روما، وتركز نشاطهم في الأعمال التجارية والحرف الصناعية بوصفهم باعة متجولين في في معسكرات الجيش الروماني، ثم دخلوا اسبانيا بعد أن أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الإمبراطورية الرومانية[٤]. ولعل وصول اليهود وانتشارهم في مناطق كثيرة من العالم العالم ومنها اسبانيا، يرجع الى الاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل الإمبراطورية الرومانية التي هاجمت بيت المقدس (أورشليم) وهدمت معبد (هيكل سليمان) سنة (٧٠م)[٥] بقيادة الإمبراطور تيتوس (Titus) (٤٠- ٨١م)، ثم تتبعهم في المناطق القريبة من بلاد الشام وشمالي شبه الجزيرة العربية ومصر وافريقية. أما اليهود داخل

داخل الإمبراطورية الرومانية التي كلت تدين بالوثنية، فقد اتسمت معاملتهم بالتسامح في بالتسامح في ممارسة معتقداتهم الدينية وأعفوا من تأليه وتقديس الإمبراطور[٦]، كما كانوا محميين من القانون الروماني بوصفهم مواطنين اعتياديين في المجتمع، ولم ينظر ينظر إليهم على أنهم غرباء بل مواطنون رومان. وكانوا في اسبانيا كثيري العدد بشكل بشكل استثنائي، وسيطروا على المراكز المهمة والرئيسة في المدن[٧]. وبعد صدور صدور مرسوم ميلان الشهير سنة (٣١٣م) باعتراف الإمبراطور قسطنطين (٣٠٥ـ ٣٣٧ م) بالديانة المسيحية (النصرانية) ديانة رسمية للدولة[٨]، ونقله عاصمة الإمبراطورية سنة (٣٣٠م) من روما القديمة على ضفاف التبير في ايطاليا ايطاليا الى بيزنطة (روما الجديدة– القسطنطينية) على ضفاف البسفور[٩]. وبعد أن أحرز قسطنطين انتصاره على منافسه ليسينيوس (Licinius) وما تبع ذلك من انضواء انضواء الشرق تحت لوائه، تغيرت معاملة اليهود عموما، ويرجع ذلك الى الموقف العقائدي العقائدي الذي اتخذه اليهود من النبي عيسى (عليه السلام)، فضلاً عن مساعدتهم الإمبراطورية الرومانية في اضطهاد المسيحيين والتنكيل بهم[١٠]. وخلال الحكم القوطي القوطي الغربي (Visigoths)(٥٧٠-٧١١م) لأسبانيا، كانت معاملة اليهود جيدة، جيدة، وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية وحرية العمل[١١]، لكن ما لبثت معاملتهم أن أن أصبحت قاسية جداً وضيق عليهم بعد تغيير القوط مذهبهم الديني من الآريوسية الى الكاثوليكية في عهد الملك (ريكاردو) (Reccaredo) سنة (٥٨٧م)[١٢]، فصارت فصارت طليطلة مركزاً لأسقفية كبيرة يقيم فيها أسقف كبير يمثل البابا ونفوذه[١٣]، وأخذت المجامع اليهودية الطليطلية تقدم المشورة للملوك لسن القوانين القاسية ضد اليهود[١٤]، ومنها فرض الضرائب على الذين يشتغلون في التجارة والربا[١٥]، وبذلك تحول وبذلك تحول الاضطهاد الديني من المسيحيين أصحاب المذهب الكاثوليكي الى اليهود. وفي اليهود. وفي اثر ذلك اخذ اليهود يميلون الى العزلة في مجتمعات مستقلة، نتيجة للاضطهاد الشديد ولاسيما أن المجامع المسيحية الطليطلية استمرت في تضييق الخناق

الخناق عليهم بإشراف البابوية، فأصدر المجمع الطليطلي الثالث سنة (٥٨٩م) قراراً قرا راً يقضي بضرورة تعميد الأطفال الذين يولدون من زيجات يهودية – مسيحية [١٦]، ثم اصدر الملك سيسبوت(شيشبرت) سنة (٦١٣م) قرا راً يخير اليهود بين القصر (اعتناق المسيحية) والهجرة من اسبانيا، وقد أيد المجمع الطليطلي السادس سنة (٦٣٨م) هذا القرار[١٧]، فاضطر الكثير من اليهود الى الهجرة، وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق النصرانية، وهؤلاء هم الذين يسمون (اليهود المتسترين) (Juduizantes)، كما قرر المجمع الطليطلي الثامن ضرورة تعميدهم من جديد وامتحان وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه لأنه محرم في الديانة اليهودية، اليهودية، ثم حرمت إقامة الشعائر الدينية اليهودية، وصودر ربع أملاك من ظل على على اليهودية، كما لعن المسيحيون الذين يساعدون اليهود في إقامة شعائرهم وطقوسهم، وطقوسهم،فضلا عن طرد اليهود الموجودين في مدينة آربونة[١٨] الذين كانت لهم علاقة علاقة حسنة مع المسيحي وقد بلغ هذا التعف مداه في أيام الملك (ايرفيج) إذ قرر تطبيق تطبيق قرارات المجمع الطليطلي الثامن القاضية بإرغام اليهود جميعاً على التنصر (اعتناق المسيحية) وترك البلاد خلال عام واحد. وحاول بعضهم سراً القضاء على الدولة القوطية، فاكتشف القوط أمره، فقرر المجمع الطليطلي السادس عشر عدَّ اليهود جميعاً اليهود جميعاً رقيقاً وتوزيعهم على المسيحيين وحرم عتقهم، كما قرر المجمع فصل أولادهم عنهم وتنصيرهم، وتربيتهم تربية مسيحية، وان لا يتزوج العبد اليهودي إلا بجارية مسيحية ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني، واستثني من ذلك يهود مدينة سبتمانية[١٩]؛ لعدم اشتراكهم في المؤامرة التي حيكت ضد الحكم القوطي. وحاول وحاول أخيكا (Egica) (٦٨٧ . ٧٠٢م) أن يخفف الوطأة على اليهود، فأزال عنهم عنهم ما كانوا يلقونه من إرهاق، ولم يكد اليهود أن يتنفسوا الصعداء حتى بدؤوا يكيدون للقوط، ويتصلون بأبناء عمومتهم في المغرب، وحاولوا إغراء العرب بفتح اسبانيا فأدى ذلك الى تغيير موقف(اخيكا) ضدهم؛ فأصدر المجمع الطليطلي السابع عشر عشر قرا راً في سنة (٦٩٤م) يقضي بالعودة الى الاضطهاد السابق، وعدَّ اليهود خوارج

خوارج على الدولة، وقضوا بان تنتزع أملاكهم في سائر اسبانيا وتحول الى أملاك العرش، وان يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للمسيحيين ويهبهم الملك عبيداً لمن يشاء لمن يشاء ولا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، ولا يحرر أرقاؤهم أرقاؤهم إ لا إذا اعتنقوا المسيحية بصدق وعندها يمنحون بعض أملاكهم[٢٠]. وكان لملك وكان لملك القوط قبل الأخير غيطشة (Witiza) موقف متسامح مع اليهود، وبالمقابل كان وبالمقابل كان له موقف متشدد من رجال الدين المسيحيين[٢١]، ولكن لا يبدو أن لذريق(Rodrigo) التي استولى على الحكم وعزل الملك غيطشة قبل الفتح الإسلامي الإسلامي بسنة[٢٢]، قد أعاد الاضطهاد السابق لليهود . وهكذا دأب ملوك القوط (Goths) على استمرارهم بسن قوانين اشد قساوة من القوانين السابقة ضد اليهود وبتحريض من الكنيسة الكاثوليكية، على الرغم من أن زمناً طويلاً مر على اعتناقهم اعتناقهم المسيحية، وليس من العجب أن نجد اليهود بعد ذلهم وإفقارهم ومنعهم من الوظائف الوظائف الحكومية وأخيرا استعبادهم، يرحبون بالمسلمين ويؤيدونهم ضد القوط الغربيين، الغربيين، بعد أن فشلت كل المؤامرات التي قاموا بها للقضاء على الحكم القوطي. من هذا من هذا كله يمكن القول: أن اليهود دخلوا اسبانيا في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وكانت معاملة الدولة الرومانية (الوثنية) تتسم بشيء من التسامح، لكن بعد اعتراف اعتراف الإمبراطور (قسطنطين) بالديانة المسيحية سنة (٣١٣م) ديانة رسمية للدولة، للدولة، بدأت حملات الاضطهاد والتنكيل المسيحي باليهود، لكن خلال حكم القوط الغربيين لأسبانيا (٥٧٠ـ٧١١م) ازدادت معاملة اليهود قساوة، وضيق عليهم ولاسيما بعد أن غيَّر القوط مذهبهم من الآريوسية الى الكاثوليكية سنة (٥٨٧م). وبإشارة من البابوية كانت المجامع الكنسية المسيحية التي تعقد في اسبانيا تصدر المراسيم والقرارات التي تضطهد اليهود ومنها: فرض الضرائب الباهظة على تجارتهم، تجارتهم، وحملهم على اعتناق المسيحية بالقوة، ومصادرة أملاكهم وتعميد أولادهم. ووصل الأمر بمجمع طليطلة السابع عشر (٦٩٤م) الى أن يصدر مرسوماً يقضي بنزع كل بنزع كل أملاك اليهود، وفرض الرق الأبدي عليهم للمسيحيين. وليس من العجب أن نجد

أن نجد اليهود يرحبون بالمسلمين ويؤيدونهم ضد القوط الغربيين، لاسيما بعد أن سمعوا سمعوا بمعاملتهم الحسنة لأبناء جنسهم داخل ارض المسلمين وبالذات في شمالي إفريقيا، وفي اثر هذا الموقف كافأهم المسلمون بعد الفتح(٩٢هـ / ٧٩٨م) بإشراكهم في بإشراكهم في حماية المدن التي يسيطرون عليها.

ا لهو امش

١- هادريل، والاس، أوربا في صدر العصور الوسطى، ص.١٤٨

٢- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول)، ص .٢٥

٣- اليهود والصهيونية في المغرب العربي ، المجلة (العربية للعلوم الإنسانية) ، ع٤،ص.١١٩

٤- .History of the Jews(NewYork:١٩٦٨) pp.٢٦٥_ ٢٦٦.

٥- يوسفوس ، فلافيوس، تاريخ الحروب اليهودية، ص٢٠٣ . .٢٠٧

٦ . عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوربا العصور الوسطى،ج١،ص.٣٦

٧ . هادريل ، أوربا ، ص.١٦٣

٨ . عاشور ، أوربا العصور الوسطى، ص٢٧..٣٩

٩-Grayzel: History, p٢٧٠.

١٠- عاشور، أوربا الوسطى، ص٢٧-.٣٩

١١- Grayzel: History, p٢٧٠.

١٢- Ariunism نسبة الى آريوس (Arius) (٢٥٠-٣٢٦م) وهو احد رهبان الإسكندرية، خالف الكنيسة الكاثوليكية بقوله: أن السيد المسيح ليس من جوهر الله ولا يشاركه في الأزلية، وقد حرمت (الآريوسية) بموجب مجمع نيقية سنة (٣٢٥م) وعدت حركة هرطقية.

١٣ـ كرباج، جورج، عناصر المجتمع الأندلسي عند الفتح العربي، مجلة (آفاق عربية) ع١١،ص٣٨ ..٤٥

١٤ . بدر، احمد، دراسات في تاريخ الأنظم وحضارتها من الفتح الى الخلافة ص.٩٠

١٥ . بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في اسبانيا،ص .٦٢

١٦ . هادريل، أوربا، ص .١٦٣

١٧ . عنان، دولة الإسلام، ص .٢٩

١٨ـ مؤنس، حسين، فجر الأندلس (القاهرة :١٩٥٩م) ص٥٢٢؛ سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص.٦٥

١٩ . مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٢٣، ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص.١١٣

٢٠ . مؤنس، فجر الأندلس، ٥٢٢-.٢٢٣

٢١ . ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج٢،ص.٤

٢٢ . مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص٥.